إلحاق(الجزائر طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية

1- الصراع العثماني الاسباني في الحوض البحر المتوسط وظهور عروج وخير الدين بربروس:

اختلف المؤرخين في سبب مجيء العثمانيين للمنطقة فمنهم من يرى أن الإخوة بربربوسة أرسلوا من قبل السلطان سليم إلى الجزائر، لكن يبق عنصر الاستنجاد وما كان يقوم به الإخوة من أعمال جهادية ضد الاعتداءات الاسبانية كما أشار إليه محمد بن يوسف الزياني: «أعلم أن سبب مجيئهم للجزائر هو تغلب النصارى على السواحل». إذن دخول العثمانيين للحوض الغربي للمتوسط جاء أولا في إطار أعمال فردية للبحارة العثمانيين بتفويض من بعض أمراء آل عثمان، ثم بصفة رسمية عندما انضمت الجزائر للدولة العثمانية في ظرفية اتسمت بالصراع بين الاسبان المدافعين عن المسحية والدولة العثمانية الحامية الإسلام والمدافعة عن المسلمين.

كان الدين هو المبرر الأول لظهور العثمانيين في المشرق والمغرب، فلولا الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا الغربية بقيادة اسبانيا ضد الجزائر والمغرب العربي عامة والأندلس لما كان هناك مبرر لتدخل آل عثمان، كما كانوا في آسيا الصغرى قرونا من قبل، مدفوعين برغبة الجهاد والحماس الديني للدفاع عن حدود الإسلام الغربية. وفي إطار هذه الحركة الجهادية وجدوا حلفاء لهم رجال الدين وخصوصا المرابطين، إلى جانب الظروف السياسية والاقتصادية والدينية كانت تستوجب ذلك.

- دور الإخوة بربروسة عروج وخير الدين في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط: تعتبر مرحلة ظهور الأخوين عروج وخير الدين وقيادتهما للأعمال الجهادية، وانتقالهما من الحوض الشرقي للمتوسط إلى الحوض الغربي وذلك منذ سنة 1504م، هي المؤشر الأول لبداية التدخل العثماني بالمنطقة فقد وضعوا أنفسهم تحت خدمة السلطان العثماني بالقيام بحملات جريئة على السواحل الاسبانية قصد مساعدة مسلمي الأندلس. وقد سمح لهما السلطان الحفصي محمد بن الحسن(1494-1526م) باتخاذ جزيرة جربة قاعدة للحركة الجهادية التي كانت قضية الأندلس أهم أهدافها. نتيجة لذلك باستعمال كل الموانئ الحفصية والتزود بكل ما يحتاجونه وهو الأمر الذي مكنهما من أن يتعرفا جيدا على هذه الفضاءات الجغرافية وعلى رجالاتها وقبائلها ومختلف التقسيمات القبلية المتنازعة؛ حيث كان الصراع الداخلي بين القبائل قد سمح بتقوية الحضور الأسباني بالسواحل المغربية.

وحسب الدراسات أنه كان أول من طلب النجدة من الأخوين هم أعيان بجاية وذلك سنة 1512م، فقد كانت جل غزواتهم البحرية ناجحة بل أربكت المسحيين بشكل كبير وزرعت فيهم الخوف من هذه القوة البحرية العثمانية الإسلامية في حوض البحر المتوسط.

محاولة تحرير بجاية من الأسبان: ابتداء من سنة 1512م بدأ نجم الأخوة بربروسة يخترق الآفاق، اتصل بهما علماء وأعيان بجاية وأمير قسنطينة الحفصي أبو بكر في نفس العام وطلب منهم النجدة وتخليصهم من الأسبان، فزحفوا عن المدينة ولكنهم لم يصادفوا نجاحا بسبب تحصينات الأسبان القوية وتعاون أمراء قلعة بني عباس مع الأسبان، وقد جرح عروج أثناء محاولة اقتحام المدينة وقطعت ذراعه بعد أن استعصى على الأطباء علاجها.

التمركز بمدينة جيجل: خلال عودة عروج من حصاره لبجاية إلى حلق الوادي استنجد به أيضا سكان مدينة جيجل وتمكن هذه المرة من انتزاعها سنة 1514م ونقل إليها مركزه من حلق الوادي.

إعادة الكرة على بجاية: بعد الاستقرار بمدينة جيجل اهتم عروج وإخوته بأمر المسلمين المضطهدين بالأندلس، فاخذوا يترددون بأسطولهم على شواطئ الأندلس وينقلان المهاجرين إلى سواحل المغرب ولم يكتفوا بهذا فأغار خير الدين على جزر البليار وأسر ما يقرب عن ستة آلاف(6000) أسير أسباني كانتقام من الأسبان. ونظرا للنجاح الذي حققه عروج بجيجل فقد بايعه سكانها أميرا عليهم واستحثه شيوخ القبائل وأمير جبل كوكو أحمد بن القاضي على إعادة الكرة على بجاية، فنظم حملة عليها عام 1514م بجيش بري وحاصرها ما يقرب من ثلاثة شهور دون جدوى واضطر إلى رفع الحصار وكرر المحاولة في ربيع العام الموالي بقوة برية كبيرة، لكن نفاذ الذخيرة الحربية وامتناع الأمير الحفصي بتونس عن تزويده بالذخيرة اضطره إلى الانسحاب منها بعد أسر عدة مئات من الأسبان 600 أسير، حيث أصبح السلطان الحفصي يتخوف ازدياد نفوذ الأخوين إذا حققا انتصارا على الاسبان، وهذا يشكل خطرا على سلطانه. ومن حسن حظ عروج في هذه الفترة أن السلطان العثماني بعث إليه أربعة عشر(14) سفينة ومجموعة من المجدفين المهرة، وكمية من الأسلحة والذخائر جراء الهدية الثمينة التي أرسلها عروج للسلطان العثماني بعد فتح جيجل.

استجاد أهالي الجزائر: ذكر خير الدين في مذكراته بأنه لما كان في مدينة جيجل وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية للاستنجاد بهم، وكان أهمها وفد مدينة الجزائر التي كانت تمثل مركز البلاد حسب تعبيره، كان أهالي الجزائر يشكون من ظلم الاسبان، ويرجون تدخل الإخوة لإنقاذهم. كانت تحكم مدينة الجزائر هيئة من الثعالبة تحت رئاسة شيخ من شيوخهم وكان آخر الرؤساء من هؤلاء سالم التومي. بعد بناء الأسبان لحصن البانيون سنة 1510م ونزلوا فيه أخذوا في إرهاق الجزائريين والتضييق عليهم بفرض الضرائب الباهظة وأصبح الحصن أيضا وكرا للجوسسة والتخريب يشن الأسبان دوما الغارات على المدينة فيسلبون منهم أموالهم وأغنامهم ويعرضون باستمرار حياة السكان للخطر الشديد مما جعلهم يعيشون في حالة استنفار دائم. فسئموا من هذه الإهانة والقتل وحاولوا التخلص من هذا الحصن الذي كان بمثابة شوكة. وخلال هذه الفترة كان عروج قد استقر بجيجل فذهب إليه وفد من سكان مدينة الجزائر إلى جيجل في سنة 1516م وشكا إليه ما هم عليه من ضيق

والخطر المحدق بهم وبمدينتهم باستمرار. فخرج على رأس قوة بعضها من الأتراك وأغلبها من سكان القبائل(حوالي 800 تركي وثلاثة آلاف (3000) جزائري). في طريقه لمدينة الجزائر عرج على مدينة شرشال ففتحها 1516م. وإثر وصوله لمدينة الجزائر شرع مباشرة في قذف حصن البانيون بالمدافع لكن محاولته باءت بالفشل فاخذ بعد ذلك يستعد للقضاء على الحصن الذي اعتبر خطرا يهدد المدينة ويهدد المنطقة بكاملها. وفي هذه الأثناء بايعه السكان أميرا للجهاد في سبيل الله وأصبح لدى عروج وأخويه شعبية في وسط السكان مدينة الجزائر وأيضا سكان السواحل القريبة وأصبح يهدد سالم التومي في مملكته. فأثار ذلك حقد سالم التومي وأتباعه الذين كانوا يحتفظون بالسلطة في المدينة فحاولوا التآمر ضده وذلك بالتحالف مع الأسبان خفيتا ولكن عروج فطن للمؤامرة وقرر الانتقام منهم، فقضى على رئيسهم سالم التومي واغتياله في منزله وقيل في الحمام يوم الجمعة، وكان لسالم التومي ولدا اسمه يحي فر بعد مقتل أبيه إلى وهران مستنجدا ومستغيثا بالأسبان.

المحاضرة الرابعة: ظروف إلحاق الدول المغاربية(الجزائر طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية

– **إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:** لما استشهد عروج وجد خير الدين نفسه في موقف حرج، وظروف وأوضاع غير مستقرة، منها وجود الاسبان في كل من وهران والمرسى الكبير، وحمايتهم للزيانيين في تلمسان، موقف السلطان الحفصى الذي تخلى عنه، وخوفه على نفوذه وسلطانه في المنطقة وتحالفه مع ابن القاضي، فقد ظهرت عدة تمردات بمحيط مدينة الجزائر، تمرد أحمد ابن القاضي في جبل كوكو، وظهر تمرد في شرشال وتنس. فأدرك خير الدين أنه من الصعب الاحتفاظ بمدينة الجزائر في وسط هذه الظروف، ورأى من الضروري إبرام حلف قوي يكون له كسند ومصدر تموين، فقرر إعلان الولاء للسلطان العثماني سليم الأول. وعن ظروف اتخاذ هذا القرار ندرج ما يلي، عقد مجلس أعيان مدينة الجزائر اجتماعا بعدما قرر خير الدين مغادرة الجزائر رفض فيه القرار الذي اتخذه خير الدين، وهذا ما أكده مفتي الجزائر آنذاك بقوله الموجه لخير الدين: «... ليس لهم غيرك كحاكم وسيكون من غير المشرف أن تتركهم عرضة لهجمات الكفار الذين لا ينتظرون إلا الوقت الذي تبتعد عنهم ليغرقوا البلاد بجيش من البرابرة... ».

اقترح خير الدين على مجلس الأعيان طلب الحماية من الدولة العثمانية، فكانت أول رسالة(وثيقة) باللغة العربية بعث بها سكان مدينة الجزائر للسلطان العثماني سليم الأول(1512–1520م) سنة أوائل ذي القعدة 925ه/1519م الموافق لتاريخ 26 أكتوبر و 3 نوفمبر من عام 1519 ميلادي يعرضون فيها رغبتهم في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية. ومما جاء بالرسالة وفيها إشادة بشخصية خير الدين الجهادية«...لقد أظهر مزيدا من الشجاعة والجدية عندما قادنا إلى الجهاد في سبيل الله بنية حسنة وقلب صادق متفق الكلمة معنا في الشدة والرخاء لإعلان كلمة الله ». حمل الوفد معه عند عودته إلى مدينة الجزائر فرمانا تضمن موافقة السلطان على

طلب الوفد وأن يذكر اسمه بالدعاء له في الخطب الدينية وأن تضرب النقود باسمه، وتدعيم خير الدين بقوة عسكرية من الجيش الإنكشاري قوامها ألفين من الجنود ، وقرابة أربعة آلاف من المتطوعين وإرسال أسطول بحري للجزائر لدعم قوة خير الدين، إلى جانب العتاد الحربي من سلاح وذخيرة، كما بعث السلطان العثماني مع الوفد السيف والخلعة السلطانية مصحوبين بفرمان تعيين خير الدين كأول حاكم عثماني على الجزائر عرف باسم البايلرباي. أدرك خير الدين بحنكته السياسية والعسكرية وإدراك خطر الاسبان وكذلك خطر القبائل لذلك نجده قد قام بتوزيع الفرق العسكرية والحاميات العسكرية على المدن الحدودية كمستغانم وتنس وملیانة ومدن أخرى وذلك لتجنب الثورات، ووضع على تنس حاكم هو حميد العيد مقابل دفع ضريبة سنوية، وسمح لرياس البحر استئناف الجهاد البحري.

تمكن خير الدين من القضاء على التمردات المحلية منها القضاء على ابن القاضي الذي استولى على مدينة الجزائر خلال فترة 1521-1527م، حيث عان سكان مدينة الجزائر كثيرا من جور ابن القاضي وظلمه حيث أثقلهم بالضرائب، وتمكن خير الدين من استعادة سلطته ونفوذه بعد القضاء نهائيا على ابن القاضي، كما تمكن من تحرير عدة مدن منها القل وقسنطينة، وعنابة عام 1527.

جعلت الدولة العثمانية من الجزائر ولاية ذات وضع خاص، قاعدة للوجود العثماني في غرب المتوسط. وأوكلت إليها مهمة التصدي للعدوان الاسباني على سواحل شمال إفريقيا، وتأمين عمليات إنقاذ المسلمين في الأندلس. قام أسطول خير الدين بربروس بواحد وعشرين حملة على اسبانيا، في كل منها كان يقوم بإنقاذ آلاف من المسلمين من الرجال والنساء والأطفال من المحارق والسيوف الاسبانية ونقلهم إلى سواحل شمال افريقيا، وكان يتولى بنفسه قيادة الأسطول في معظم الحملات، بالإضافة إلى تولى آيدين رئيس، وسنان رئيس قيادة الأسطول مرات عديدة.

قام خير الدين من القضاء على التواجد الاسباني بمدينة الجزائر نهائيا بتحطيم حصن أو قلعة البانيون عام 1529م، وأسر قائد الحامية الاسبانية. تمكن خير الدين بربروس من جعل الجزائر قوة بحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، هزت اسبانيا وأرعبت أوروبا واستحقت بأن يطلق عليها لقب المحروسة، ودار الجهاد.

2- إلحاق طرابلس الغرب بالدولة العثمانية: احتل الاسبان مدينة طرابلس في سنة 1510م بقيادة بيدرو نافارا ثم تنازل الاسبان عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا في مالطة عام 936ه/ 1535م مقابل مساعدتهم في حربهم البحرية ضد الدولة العثمانية، وبذلك تمكن الفرسان من قطع طريق الإمدادات العثمانية القادمة من شرق البحر المتوسط. وقد خرج أهلها إلى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة.

في وسط هذه الظروف قام الليبيون باتخاذ مصراته وتاجوراء مركزا هجوميا ضد الاسبان والمالطيين، ونتيجة تكرر الهجمات الاسبانية وتجاوزات فرسان القديس يوحنا، ذهب وفد من أهل طرابلس وتاجوراء ذهبوا إلى السلطان العثماني سليمان القانوني يستنجدون به، ويطلبون العون في سنة 1520م. استقبلهم السلطان وأكرمهم ثم ولى عليهم مراد أغا وقدموا به لبلدهم، وهو أول والي تركي في طرابلس الغرب.

اتخذ مراد أغا من تاجوراء قاعدة له ثم شرع في محاصرة مدينة طرابلس التي لم يستطع تحريرها لقلة جنده. لما فشل مراد أغا في الاستيلاء على طرابلس وتحريرها من الاسبان، فأرسل السلطان العثماني سليمان القانوني قوة بحرية أخرى بقيادة سنان باشا وطرغود باشا. فوضعا خطة محكمة لتحرير طرابلس من فرسان القديس يوحنا وذلك بإعداد خطة الهجوم البري من ناحية الشرق بقيادة سنان باشا وهجوم بحري يقوده طرغوت باشا من ناحية الشمال، وتم محاصرتها حصارا شديدا إلى أن استسلمت حاميتها وقد تمكن العثمانيون من استعادة طرابلس في 12 شعبان 958ه/15 أوت 1551م. كما تجدر الإشارة إلى مساندة السكان واشتراكهم في المقاومة، فقد كان شيوخ طرابلس وأكابرها على رأس طلائع المقاومة في تاجوراء، ومنعوهم من التموين والتواصل التجاري مع القرى الساحلية.

3- التحاق تونس بالدولة العثمانية

- الصراع الاسباني-العثماني على تونس 1534-1574م: كانت تونس تسمى بافريقية، أو تونس الحفصية، كانت تمثل للاسبان أهمية إستراتيجية نظرا لموقعها الممتاز حيث أنها تطل على مضيق صقلية ذلك الممر الرابط بين البحر المتوسط الشرقي والغربي، إلى جانب استقرار العثمانيون بمدينة الجزائر فأخذ شارل الخامس في البحث عن مراكز أخرى.

امتازات المرحلة الأخيرة من العهد الحفصي بظهور الاضطرابات الداخلية وبانحلال الدولة شيئا فشيئا انحصرت سلطتها في نهاية الأمر في مدينة تونس وما يحيط بها وانتصاب الاسبان واستقرارهم في بعض المناطق الساحلية مثل حلق الوادي. وانجر عن ذلك تفتت المجتمع داخل البلاد وانقسامه إلى مجموعات تتمثل في القبائل المستقلة، والقبائل الشبه مستقرة. كانت هذه القبائل في أغلبها تمتلك النفوذ والسلطة والأسلحة لا يخضعون للسلطة المركزية وهي في حالة صراع دائم.

احتلال شارلكان تونس 1535م: تمكن خير الدين بربروس من أخذ بعض السواحل التونسية منها بنزرت وحلق الوادي وتونس سنة 1534م وذلك من أجل التخلص من الخطر الاسبان، لكن نجد أن لما فشل الأمير الحفصي في محاولة استرجاع المناطق التي سيطرت عليها قوات خير الدين استنجد أبي عبد الله الحفصي(مولاي الحسن)

بشارل الخامس فساعده بإرجاع تونس واعتبر شارلكان أن ضم تونس للممتلكات العثمانية تهديدا له فكانت حملة عام 1535م والتي تراجع على إثرها خير الدين إلى مواقعه بالجزائر اثر معركة كبيرة، واستعاد الحفصيون ملكهم لكن تحت الحماية الاسبانية. أمضى الحفصي معاهدة في 6 صفر 942ه/1535م بين الحفصيين والإسبان وأهم مضامينها: يسمح للإسبان بسكنى جميع أنحاء القطر إقامة طقوسهم الدينية دون يتعرض أحد لهم. إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين بتونس بإقامة شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية. تنازل لهم الأمير عن مدن عنابة وبنزرت والمهدية وحلق الوادي ليقيموا بها حاميات لهم. يدفع الأمير الحفصي سنويا للإسبان أثنى عشر ألف دوكة الإنفاق على الجنود بحلق الوادي. يتعهد الأمير الحفصي في كل سنة بتقديم 12 حصانا و12 مُهرا للإمبراطور قبل يوم من عيد سان تان، السماح للجيش الاسباني بنهب الأهالي وتقتيلهم لمدة ثلاثة أيام متتالية.

-**خضوع تونس للدولة العثمانية:** كان خضوع طرابلس للدولة العثمانية ووجود الريس درغوث باشا على رأس الإيالة(1555-1565) بداية للتفكير والعمل على استرجاع تونس، الذي نجح في أخذ قفصة في 20 سبتمبر 1556م، والقيروان في 27 سبتمبر 1557م حيث وجه ضربة قاضية للشابيين وأقام بها حامية تحت قيادة حيدر باشا.

كما كان لانتصار العثمانيين عام 1560 في حملتهم بقيادة درغوث باشا على جزيرة جربة الدور في تطويق الاسبان بتونس وتضييق الخناق عليهم، فقد تمكن درغوث باشا من إغراق المراكب الاسبانية وأسر نحو خمسة آلاف جندي وقتل من تبقى وبنى برج الرؤوس. وبذلك مُهد الطريق إلى الحملة التي قادها العلج علي سنة 1569م الذي بدأ في تصفية القواعد الاسبانية في تونس بعد أن نجح في هزيمة الحفصيين في سهل باجة واحتل تونس، والتجأ الأمير الحفصي أبو العباس أحمد إلى الاسبان في حلق الوادي، فأخذ العلج علي البيعة للسلطان العثماني سليم الثاني وأبقى حامية عسكرية بمدينة تونس ثم عاد إلى الجزائر، وأخذ يعد العدة لانتزاع حلق الوادي من الاسبان. هذا الأمر أقلق الاسبان مما جعل البابا يصدر نداء لإقامة حلف مسيحي من أجل المحافظة على القواعد الأمامية في المغرب. فكانت حملة دون جوان دوتريش Don Juan d'Autriche سنة 1571م، فكانت معركة ليبانت قرب سواحل مالطا سنة 1571م التي انهزم فيها الأسطول العثماني، وبعد هذه المرحلة توقف النفوذ العثماني في الحوض المتوسط، واحتفظ الاسبان ببعض الثغور الداخلية في شمال إفريقيا مما شجع اسبانيا على إعادة محاولة الهجوم على تونس سنة 1573م اثر حملة بقيادة دون جوان وإعادة حكم الحفصيين إليها.

فبدأت الدولة العثمانية في اتخاذ التدابير والاستعداد استرجاع تونس نهائيا وتصفيتها من الاحتلال الاسباني، تم تجهيز الحملة العثمانية بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا سنة 1573م، بالإضافة إلى قوة بحرية بقيادة العلج علي وحققت الحملة انتصارا ساحقا على الاسبان ونجح العلج علي في الاستيلاء على حلق الوادي. وقد أمر سنان باش بتهديم حصن الباستيون وقبض على الأمير الحفصي محمد بن الحسن وأرسل إلى القسطنطينية وانتهى بذلك حكم الحفصيين بتونس، وانتهى معه الوجود الاسباني.

المصادر والمراجع:

- مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.

- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1965.

- مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر وهيبتها الدولية قبل 1830، الطبعة الأولى، الجزء الأول، 1985.

- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجماعية، الجزائر، 2007.

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، الطبعة الأولى، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت(لبنان)، 1998.

- خير فارس، محمود علي عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث، المغرب الأقصى ليبية، جامعة دمشق، 2000.

-Depont O. et Coppolani X., Les confréries religieuses musulmanes, Jourdan, Alger, 1897